الفصل السابع

النقد الباطنى الإيجابى

الغرض من النقد الباطنى – عملياته – النقد الباطنى الإيجابى – تحليل النص التاريخى – تحديد المعنى الحرفى للألفاظ – تحديد المعنى الحقيقى وغرض الكاتب – بعض الطرق لكشف المعانى الخفية – إشارة إلى بعض الأسس التى اتبعها علماء المسلمين فى تفسير القرآن .

الغرض من النقد الباطنى هو الوصول إلى الحقائق التاريخية خلال الوثائق والأصول التاريخية . فالأصل التاريخى يصل إلى الباحث فى التاريخ نتيجة عدة عمليات ، لا يشرحها الكاتب فى الغالب . فهو فى أحوال كثيرة لا يوضّح كيف لاحظ الوقائع ، ولا كيف جمع معلوماته عنها ، ولا كيف صاغ العبارات التى تعبر عنها التعبير الصحيح ، ولا كيف دوّنها . وهذه كلها عمليات مستقلة كل واحدة منها عن الأخرى ؛ ومن الجائز أنه لم تراع الدقة التامة بشأن بعضها أو بشأنها جميعاً .

وعلى ذلك فمن الضرورى أن تحلل الوثيقة أو النص التاريخى ، لمعرفة العمليات التى لم تراع فيها الدقة اللازمة – بقدر الإمكان – حتى لا يأخذ الباحث بما ورد به من المعلومات قبل التثبت من صحتها . فالتحليل (analysis) ضرورى فى نقد الأصول التاريخية . وما من نقد يمكن أن يجرى دون أن يبدأ بالتحليل . ومن أهم واجبات التحليل استرجاع أغلب العمليات التى قام بها المؤلف ، منذ الوقت الذى بدأ فيه بمشاهدة الحادث – إن كان قد فعل ذلك – حتى تحركت يده لتسطير الأصل التاريخى الماثل بين يدى الباحث فى التاريخ . أو على العكس من ذلك ، ينبغى أن يسير الباحث ابتداء من الحادث المسجل فى الأصل التاريخى ، حتى يصل إلى الوقت الذى شهد فيه المؤلف ذلك الحادث – إن كان قد فعل ذلك . ولا شك أن ذلك يستغرق الزمن ويقتضى الصبر .

ويلجأ أكثر الباحثين فى التاريخ دقةً إلى طريق مختصر ، ويُركزون عملياتهم فى مجموعتين :

١ ــ تحليل محتويات الأصل التاريخى بالنقد الباطنى الإيجابى الضرورى للتحقق من معنى الألفاظ ومن قصد المؤلف بما كتبه .

٢ ــ تحليل الظروف التى دُوِّن فيها الأصل التاريخى ، بالنقد الباطنى السلبى ــ الذى سيأتى بعد ــ والضرورى لإثبات صحة المعلومات المدوّنة .

وربما يتوقف بعض الباحثين فى التاريخ عن تطبيق هذا النقد المزدوج نظراً لما يلاقونه فيه من المشقة والعناء . ولكن التاريخ العلمى لا يُكتب بغير هذه الوسيلة . وبقدر ما يحرص الباحث على تطبيق النقد بهذا المعنى ، تصبح كتابته أقرب إلى الصدق وأدخل فى نطاق البحث العلمى .

وينبغى أن نلاحظ أن مَنْ يقرأ نصاً تاريخيا ولا يوجّه عنايته الأساسية إلى محاولة فهم محتوياته ، من المؤكد أنه سيفسر بعض نواح منه بناء على تصوّره ، مما قد لا ينطبق على الواقع التاريخى . فقد يجد عبارات أو كلمات توافق آراءه وتصوّره للحوادث ، فيستخرج هذه العبارات دون وعى منه . ويجعل منها نصاً خيالياً ومفتعلاً ، ويضعه فى موضع النص التاريخى الحقيقى الذى لم يتمكن من الوصول إليه . وبعض الباحثين فى التاريخ يقومون ببحثهم وهم تسيطر عليهم فكرة معينة عن حادث ما أو عن اتجاه خاص فى الناحية السياسية أو الاقتصادية أو الدينية . . . ويدرسون تحت تأثيره الأصول التاريخية التى تقع تحت أيديهم ، وبذلك ربما يفهمون هذه الأصول فهماً خاطئاً أو لا يفهمونها على الإطلاق .

وفى مثل هذه الحالة يرفض ذهن الباحث قبول الأفكار والآراء المعارضة ، وتكون النتيجة ألا يأخذ الباحث بما يورده النص التاريخى من الحقائق ، وبذلك يتكيّف النص التاريخى ويتشكّل بحسب الفكرة المسيطرة على ذهن الباحث . وقد يظن الباحث أنه يفسّر النص تفسيراً حديثاً مبتكراً . ولكن الحقيقة أنه يُخضع النص لفكرته الخاصة على حساب الحقيقة التاريخية ، ويأخذ الحادث التاريخى اللون والتفسير والمدلول الملائم الذى يريده له عقل الباحث .

ومن شأن هذا كله أنه يبعد بالباحث عن الوصول إلى الحقيقة التاريخية التى ينشدها . فينبغى على المؤرخ أن يبدأ عمله فى هذه المرحلة من البحث ، بتحليل دقيق للأصول التاريخية التى تقع تحت يده ، وأن يكون غرضه الأساسى استخراج

الحقائق منها — بقدر المستطاع — وليس إضافة ما لا وجود له على تلك الأصول [١].

فينبغى أن تُدرس الأصول التاريخية على اعتبار أنها تحتوى فقط على آراء الأشخاص الذين دوّنوها . وعلى الباحث أن يجعل النص يفسر نفسه بنفسه — بقدر الإمكان — قبل السعى إلى استخراج الحقائق التاريخية منه . ونخرج من ذلك بقاعدة عامة فى منهج البحث التاريخى ، ألا وهى أن دراسة الأصل التاريخى ينبغى أن تبدأ بتحليل محتوياته للوصول إلى المعنى الحقيقى الذى قصده كاتب ذلك الأصل . وهذا التحليل عملية أولية أساسية قائمة بذاتها . وينبغى أن يستعين الباحث فى هذا التحليل باستخدام صفحات ممتدة من الورق بالحجم المعروف بالفولزكاپ [٢] ، حتى تتوفر أمامه مساحة كافية للكتابة بخط واضح ، وينبغى أن يكتب على وجه واحد لتيسير العمل ، و بالحبر حتى لا تمحى الكتابة . وحرصاً على سلامة بصره . ويحسن به أن يجعل للصفحة هامشين يميناً ويساراً من طريق ثنى جانبيها ثنياً متوازياً توفيراً للوقت ، وتوفيراً لمكان يكتب به خلاصة ما بداخل الصفحة الواحدة ، حتى يسهل عليه استيعاب ما بها من المعلومات أولاً فأولا ، أو لكتابة ما يعنّ له من الملاحظات . وهناك مَنْ يفضل كتابة اقتباسه أو ترجمته أو تحليله للأصول التاريخية أو كتابة مذكراته ، على ما يعرف بالجزازات (الفيش) ، التى سبقت الإشارة إليها .

والتحليل يشمل إيضاح المعنى العام للوثيقة أو الأصل التاريخى ، ومجمل محتوياته ، ثم تفصيلاته ، ثم وجهة نظر الكاتب ، ورأى الباحث وملاحظته وتعليقه . وينبغى ألا تُستخرج فقرة معينة أو تفسر دون فهم الأصل فى مجموعه ، حتى لا يخطىء الباحث فى استنتاجه . وتحليل أصل تاريخى ما ، معناه السعى إلى فهم الحوادث والآراء والأفكار الواردة به ، والتمييز بين كل منها على حدة .

فالنقد الباطنى الإيجابى (hermeneutic) عبارة عن تحليل الأصل التاريخى بقصد تفسيره وإدراك معناه . ويمرّ ذلك فى دورين :

أولا : تفسير ظاهر النص وتحديد المعنى الحرفى له .

ثانياً : إدراك المعنى الحقيقى للنص ومعرفة غرض المؤلف مما كتبه .

---

(١) Langlois and Seignobos : op. cit. p. 144.

(٢) الورقة الفولزكاپ (foolscap) مأخوذة من قلنسوة المهرج على المسرح الهزلى إذ تصنع من فرخ الورق الكامل من الحجم المعروف بهذا الاسم ويكون طرفها الأعلى مدبباً .

وتحد يد المعنى الحرفى لنص تاريخى معين عبارة عن عملية لغوية . ولابد لفهم كل نص تاريخى من معرفة اللغة التى كُتب بها . ولا تكفى المعرفة العامة لهذه اللغة ، بل من الضرورى فهم دقائقها ، فضلا عن الإلمام بلغة العصر التاريخى الذى يرجع إليه ذلك النص ، مع الاستعانة بعلم الفيلولوجيا إذا اقتضى الأمر ذلك .

ومما سبق يمكننا أن نجمل بعض القواعد التى ينبغى على الباحث السير بمقتضاها لكى يحدد المعنى الحرفى لألفاظ النص التاريخى :

١ — تتغير اللغة الواحدة من عصر إلى آخر ، لأنها كائن حى دائم النمو والتطور . ويمكن الاستعانة فى تحديد معنى بعض الألفاظ الخاصة بالسعى إلى فهم الجمل والتراكيب التى وردت بها تلك الألفاظ .

٢ — قد تختلف معانى الكلمات من مكان لآخر ، فينبغى معرفة اللغة أو اللهجة المحلية التى وُجدت فى منطقة معينة ، والتى دُوِّن بها الأصل التاريخى .

٣ — لكل كاتب طريقته الخاصة فى التعبير ، فينبغى الإلمام بلغة الكاتب وأسلوبه . ويمكن الاستعانة فى ذلك بمؤلفاته الأخرى أو بمؤلفات العصر والبيئة التى عاش فيها ، أو ببعض المعاجم الخاصة إن وجدت .

٤ — ينبغى ألا تُفسَّر كلمةٌ أو جملةٌ ما بذاتها فحسب ، بل ينبغى أن تفسر فى ذاتها وفى نطاق السياق العام للنص التاريخى . فلابد من دراسة المعنى فى جزئيات النص لفهم معناه العام ، كما أنه لابد من دراسة معناه العام لفهم جزئياته .

وإذا اتبعت هذه القواعد بدقة كان الوقوع فى خطأ فهم النص التاريخى أقل ما يمكن . وبطبيعة الحال لا يعنى ذلك أن كل الألفاظ قد تغيرت معانيها دائماً من عصر إلى عصر ومن كاتب إلى آخر ، إذْ أن التغيير لا يصيب إلا جزءاً من الألفاظ والتراكيب اللغوية . وعلى الباحث فى التاريخ أن يتتبع الأساليب والمصطلحات التى تأخذ معنى معيناً ، ولا تتغير ولا تتبع تطور اللغة الطبيعى ، فتخالف بذلك اللغة العصرية الشائعة ، كما يدرس الألفاظ التى تدل على معان قابلة للتغيير بطبيعتها ، مثل الألفاظ الخاصة بطبقات المجتمع ونظم الحكم والعادات ، التى تتغير تبعاً لما تقتضيه ظروف الحياة . فلابد من التدقيق فى معرفة معنى كل منها فى العصر الذى كُتبت فيه وفى النص الذى وردت به . وبدون ذلك كثيراً ما يتعرض الباحث

للخطأ فى فهم النصوص واستخلاص الحقائق التاريخية منها .

وعندما ينتهى الباحث من تحديد المعنى الحرفى للألفاظ والتراكيب التى تحتمل الشك فى معانيها ، عليه أن يصل إلى معرفة غرض الكاتب والمعنى الحقيقى لما كتبه . فمن الجائز أنه كتب بعض الأساليب والتراكيب غير الواضحة ، وفى هذه الحالة لا يؤدى ظاهر النص إلى المعنى المقصود . وتعترض المؤرخ حالات كثيرة من هذا النوع ، تحتوى على تشبيه أو مجاز أو استعارة أو كناية أو رمز أو هزل ومداعبة أو تلميح وتعريض ، أو التعبير عن المقصود بطريقة سلبية . فى هذه الحالة لا يكفى فهم ظاهر النص والمعنى الحرفى للألفاظ ، بل لابد من محاولة الوصول إلى المعنى الحقيقى الباطنى الذى قصد إليه كاتب النص التاريخى .

وقد تبدو المسألة معضلة فى بعض الأحيان . ولا توجد قاعدة معينة نستطيع الوصول عن طريقها إلى المعنى الحقيقى فى مثل هذه الحالات الغامضة . وفى بعض الكتابات التى يداعب فيها الكاتب جمهور القراء ، والتى أصبحت نوعاً من الأدب فى أواخر القرن التاسع عشر فى أوروبا ، نجد أن من أهم أغراض الكاتب ألا يقدّم دليلا ما ، يمكن أن يفصح عن المعنى الحقيقى الذى يقصده . وبالضرورة إذا كان أهم أغراض الكاتب أن يكون واضحاً مفهوماً لدى القارئ ، فلا توجد فى كتابته عبارات وأساليب غامضة . وفى الغالب لا يصادف الباحث صعوبات من هذا النوع فى الوثائق الرسمية أو فى كتب التاريخ بعامة ، وفى أغلب هذه الكتابات يجىء معنى النص مطابقاً لمعنى ألفاظه تماماً .

فعلى الباحث فى التاريخ أن يكون مستعدا للكشف عن المعانى الغامضة وأن يقرأ ما بين السطور ، خصوصاً إذا كان للمؤلف أغراض أخرى أهم من أن يكون واضحاً مفهوماً ، أو إذا كان قراؤه ذوى عقلية وثقافة خاصة ،تجعلهم قادرين على فهم كتاباته ومجازاته . وهذا ينطبق على الكتب الدينية أو على بعض الكتابات الأدبية أو الرسائل الخاصة .

وعلى ذلك فإن فهم المعانى الحقيقية للعبارات الغامضة فى الأصول التاريخية هو من أهم واجبات النقد التفسيرى الإيجابى . وتوجد بعض طرق للكشف عن هذه المعانى الخفية أو المستورة خلف المعنى الحرفى للألفاظ ، وهى تتوقف على بعض

الظروف الخاصة . وهناك قاعدة عامة مفيدة فى هذه الناحية . وهى أنه إذا كان المعنى الحرفى لبعض النصوص غامضاً أو غير مناسب للموضوع أو متعارضاً مع آراء المؤلف ، أو مع الحقائق التاريخية المعروفة لديه ، فإن ذلك يدل على احتمال وجود معنى خفى يقصد إليه المؤلف . ولكى يكشف عنه الباحث ، ينبغى عليه أن يتتبع نفس الطريقة التى درس بها لغة مؤلف بعينه ، فيقارن بين الفقرات التى يشتبه فى احتوائها على معان غامضة ، ويرى إذا كان من الميسور إدراك المعنى الحقيقى فى بعضها ، وربما يؤدى فهمه لمضمون إحداها أو بعضها إلى فهمها جميعاً . وبما أنه لا توجد قاعدة محددة للكشف عن هذه المعانى ، فلا يستطيع الباحث فى التاريخ أن يدّعى وصوله إلى إدراك كل المعانى الخبيئة الواردة فى هذا النوع من الأصول التاريخية .

ولكن ليس معنى ذلك أن يُسرف الباحث فى التشكك فى معانى الألفاظ الحقيقية ، وفى تصور الكنايات والمجازات فى كل الفقرات أو حيث لا توجد . وربما يحاول الباحث أحياناً أن يزعم لنفسه قدرة معينة على فهم النصوص التاريخية وعلى استنباط الحقائق منها ، ويُحمِّل النصوص ما لا يمكن أن تحمله ألفاظها من المعانى . وتكون النتائج التى يستخلصها مجرد محاولة لإرضاء الغرور فى نفسه ، الذى هو من طبائع البشر .

وعندما يصل الباحث إلى المعنى الحقيقى للنص التاريخى ، فإن عملية التحليل أو التفسير الإيجابى تكون قد انتهت . والنتيجة التى يخرج بها الباحث من ذلك هى أنه أصبح عارفاً بمعلومات كاتب الأصل التاريخى ، وبالصور التى كوّنها فى ذهنه عن المسائل أو الحوادث التى كتب عنها .

وقد أشار الدكتور أسد رستم بحقّ ، إلى وجوب الاعتراف بفضل علماء التفسير المسلمين فى هذا المجال . فهم قد تذرّعوا بعدة وسائل فى تفسير نصوص القرن الكريم ، واتبعوا فى ذلك أُسساً علمية صحيحة . ووجدوا أن من أصحّ طرق التفسير أن يفسر القرآن بالقرآن . فما أُجمل فى مكان فقد فُسِّر فى مكان آخر . وما اختصر فى موضع فقد بُسط فى آخر . ولا ريب أن هذه وسيلة حسنة فى أحوال كثيرة . ويُفسر القرآن الكريم كذلك بالسنة التى وردت فى مناسبات مختلفة لكى ترضح

ما غمض على المسلمين فى أمور دنياهم ودينهم . وكان النبى الكريم أقدر الناس على ذلك ، فهو صاحب الدعوة الإسلامية ، وهو الذى جاهد لنشر الإسلام ، وهو الذى وضع أسس الدولة العربية الإسلامية الجديدة .

وكذلك تساعد أقوال الصحابة على فهم نصوص القرآن الكريم . فالصحابة قد لازموا النبى واتصلوا به اتصالا وثيقاً ، وفهموا دعوته ، وعاشوا وجاهدوا معه ، ولازموه فى السلم والحرب ، وعاونوه فى إرساء قواعد الدولة العربية الإسلامية ، فأتاح لهم ذلك كله الفرصة لتفهم نصوص القرآن الكريم . وتساعد أقوال التابعين أيضاً على فهم القرآن ، إذ كانوا شديدى الصلة بالصحابة ، قريبى العهد إلى عصر الإسلام الأول المجيد ، مما جعل لآرائهم قيمة وأهمية فى تفسير القرآن * .

هذه هى مجمل الوسائل العلمية التى اتبعها علماء التفسير ، وهى توضح نصيبهم فى تقدم العلم والمعرفة . والإلمام بها يفيد الباحث فى التاريخ ، ويساعده على تطبيق هذه القواعد فيما يقع تحت يده من الوثائق والأصول التاريخية .

---

* رستم ، أسد : مصطلح التأريخ (المصدر المذكور) ص ٧١ — ٨٥ .

ابن تيمية ، أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام أبو العباس تقى الدين : مقدمة فى أصول التفسير من كلام شيخ الإسلام تقى الدين بن تيمية ، عنى بتحقيقها جميل أفندى الشطى . دمشق ، ١٩٣٦ . ص ٢٤ — ٣٢ .

ونشأ ابن تيمية (١٢٦٣ — ١٣٢٨) فى دمشق وتعمق فى الفقه والحديث وعلم الكلام . وعرف بالتقوى والزهد والشجاعة والجرأة ولقب بمحيى السنة ، ولقى التنكيل من الحكام فى مصر والشام ومات مسجوناً فى دمشق . ومن آثاره المطبوعة « مجموعة الرسائل والمسائل » و « الرد على المنطقيين » و « الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان » .